دولة اليمن الزيدية

نشأتها ــ تطورها ــ علاقاتها

دولة اليمن الزيدية ، دولة عربية إسلامية شيعية زيدية ، أسسها الإمام الهادى إلى الحق « يحيى بن الحسين » ، الذى ينتسب إلى « الحسين بن على ابن أبى طالب ». أسسها فى بلاد اليمن سنة ٢٨٤ هـ ــ ٨٩٧ م .

قامت هذه الدولة على أساس دينى ، وهى الدولة الإسلامية العربية الوحيدة التى واصلت حكمها ، وحافظت على كيانها أكثر من ألف سنة من وقت قيامها إلى الآن ؛ ولكنها كانت فى هذه المدة تارة يمتد نفوذها حتى يشمل جميع بلاد اليمن ، وكل أجزاء القسم الجنوبى من الجزيرة العربية ، وتارة ينحصر سلطانها فى قسم من البلاد الجبلية اليمنية كمدينة « صَعْدة » وما يحيط بها ، وكمدينة « شَهَارة » أو مدينة « حَجَّة » . وكل هذه مناطق جبلية حصينة ، تعتبر من حصون الزيدية باليمن ومعاقلها . « فصعدة » كانت مقر الدولة الزيدية وعاصمتها عندما أسسها « الهادى إلى الحق » ، و « حجة » كانت معتصم « الإمام أحمد » الحالى بعد مقتل والده المغفور له « الإمام يحيى » ، وعند قيام الثورة اليمنية الأخيرة .

وسنحاول فى الصفحات التالية أن نعطى صورة مختصرة لهذه الدولة التى تحكم فى اليمن منذ أكثر من ألف سنة ؛ وسنحاول أن نجعل هذه الصورة واضحة كفيلة بأن تعطى فكرة تامة عن الدولة اليمنية الزيدية فى نشأتها ، وتطورها ، وعلاقاتها .

* * *

ونحن نحب أن ننبه فى بدء الحديث إلى أن تاريخ اليمن الزيدية يكاد يعتبر من النواحى المجهولة فى التاريخ الإسلامى . فإن الباحث فى تاريخ اليمن الإسلامى إذا استقصى المراجع المعروفة عربية وأوروبية ، فسوف لا يجد فى هذه المراجع عن اليمن الزيدية ما يغنى . فإنا نجد « الطبرى » مثلا فى تاريخه المشهور لا يذكر « الهادى إلى الحق » مؤسس الدولة الزيدية إلا فى إشارة عابرة

تبلغ نحو الخمسة أسطر من كتابه « تاريخ الأمم والملوك » الذى يبلغ خمسة عشر جزءا فى طبعة « ليْدن » ، وحتى فى هذه الإشارة العابرة لم يذكره الطبرى بالاسم ، وإنما تحدث حديثاً عاماً عن رجل من العلويين . كذلك « أبو الفرج الأصفهانى » صاحب الموسوعة المعروفة « بكتاب الأغانى » ذلك الرجل الذى كان واسع الاطلاع والمعرفة ، نجده فى كتابه الذى ألفه خاصة عن « أبناء أبى طالب » ، والذى سماه « مقاتل الطالبيين » نجده لا يعرف شيئاً عن الطالبيين باليمن ، فهو يصرح ويقول : « على أنه يوجد فى اليمن فى ذلك الوقت ، وبنواحى طبرستان جماعة من آل أبى طالب قد ملكوها ، وتغلبوا عليها ، إلاأن أخبارهم منقطعة عنا لقلة من ينقلها إلينا ؛ بل لعدمهم وفقدانهم».

و « ابن الأثير » فى كتابه « الكامل » نجده يصف لنا ضعف الخلفاء العباسيين وتدهور الأحوال فى الدولة العباسية فى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجرى خصوصاً فى عهد الخليفة « الراضى » ؛ ثم يعدد أصحاب الأطراف الذين استقلوا بما تحت أيديهم ، والدويلات التى انفصلت عن الدولة العباسية ، والأسر التى ظهرت لغاية سنة ٣٢٤ هـ ، ويعدها جميعها تقريباً ؛ ولكنه لا يذكر شيئاً عن الأئمة الزيديين فى اليمن ، مع أن دولتهم فى ذلك الوقت كانت قد قامت منذ أربعين سنة تقريباً .

أما « ابن خلدون » فى كتابه « العبر . . . » فقد عرف « الهادى إلى الحق » بالاسم ، وتحدث عنه فى نحو عشرة أسطر ؛ ولكنه مع الأسف حتى فى هذه الأسطر القليلة لم يورد إلا بعض المعلومات غير الصحيحة ، حيث يذكر عن « الهادى » أنه ولد فى بلاد السِّند ، وأنه قدم إلى اليمن من هناك ، مع أنه ولد فى المدينة ، وقدم من « الرَّسِّ » بقرب المدينة إلى اليمن ، كما تذكر كل المخطوطات اليمنية ، وكما سنبين .

كذلك « أبو الحسن الأشعرى » الذى ينتسب إليه مذهب الأشاعرة المعروف فى العقائد ، نجده فى كتابه « مقالات الإسلاميين » لا يذكر شيئاً عن زيدية اليمن . وكذلك « الشهرستانى » فى كتابه « الملل والنحل » لا يذكر أيضاً عنهم شيئاً .

أما قدماء الجغرافيين الإسلاميين أمثال « شمس الدين المقدسى » (محمد أبى عبد الله) فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » و « أبى القاسم بن

حوقل » فى كتابه « المسالك والممالك » « وابن رسته » (أحمد بن على) فى كتاب « الأعلاق النفيسة » « وأبى اسحق الكرخى » (ابرهيم بن محمد الفارسى) فى كتاب « المسالك والممالك » كل هؤلاء الأعلام لم يذكروا لنا فى تآليفهم شيئاً عن اليمن الزيدية يعتد به ؛ بل هم لم يذكروها الا بإشارات عابرة .

هذا هو شأن المراجع العربية ، أما المراجع الأوربية الحديثة التى كتبت عن اليمن مثل « أئمة صنعاء » (The Imams of San'a') للأستاذ تريتون (Tritton) ، وكتاب « اليمن فى القرن الحادى عشر » الهجرى (السابع عشر الميلادى) للأستاذ فيستن فيلد (Wüstenfeld) ، فهذه الكتب وأمثالها لم تعالج الدولة الزيدية باليمن ، وانما أرخت للحكم التركى هناك . وأما ما كتبه الدكتور « أنصالدى » (Ansaldi) الطبيب الإيطالى الذى عاش باليمن وكتب عنه فى عهد موسولينى فى كتابه « اليمن» (Il Yemen) فإنه لم يخرج عن ملاحظات عامة عن الشعب اليمنى ، وعن جغرافية اليمن فى العصر الحاضر .

ونحب أن نشير أخيراً الى بعض الكتب العربية التى ظهرت حديثاً عن اليمن ، ولخصت لنا بعض المعلومات المختصرة عن اليمن الزيدية من المخطوطات اليمنية الزيدية مثل كتاب « تاريخ اليمن »للشيخ عبد الواسع الواسعى اليمنى ،وكتاب « المقتطف من تاريخ اليمن » للقاضى عبد الله الجرافى مندوب وزارة المعارف اليمنية بمصر . وهى كتب ولا شك مفيدة قيمة . كذلك كتاب « ظهور الإمامة الزيدية باليمن» (De Opkomst von het Zaidietische Imamaat in Yemen) الذى ألفه « فان آرندونك » (Van Arendonk) بالهولاندية فى سنة ١٩١٩ م عن « الهادى الى الحق » مؤسس الدولة الزيدية باليمن ، واعتمد فيه على كتاب « سيرة الهادى » المخطوط « لعلى بن محمد بن عبيد الله العباسى العلوى » وعلى بعض المخطوطات الأخرى ، كذلك هذا الكتاب يعتبر من الكتب القيمة فى الموضوع ؛ ولكن هذه الكتب لا تغنى الباحث فى تاريخ اليمن الزيدية عن الاطلاع على المخطوطات الكثيرة التى كتبها أصحابها اليمنيون الزيديون عن تاريخ اليمن الزيدية مثل كتاب« الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة » للإمام الناطق بالحق « أبى طالب يحيى بن الحسين » الهارونى الحسنى المتوفى سنة ٤٢٤ هـ ، وكتاب « تتمة الإفادة » لعماد الدين يحيى بن على القاسمى »

المتوفى بعد سنة ١٠٨٨ هـ ، وكتاب « أنباء الزمن في تاريخ اليمن » « ليحيى ابن الحسين بن المؤيد بالله » اليمني المتوفى سنة ١١١٠ هـ . وهذا الكتاب الأخير له ميزة الإفاضة في ذكر تاريخ الأئمة الزيدية والتعرض لعلاقات الدولة الزيدية بدولة الخلافة ، أو بغيرها من دول اليمن المختلفة التي عاصرت الزيديين وجاورتهم . والمؤلف فوق هذا ثقة يعتمد عليه .

وهذه المخطوطات الزيدية يوجد بعضها بمكتبات أوروبا مثل مكتبة « لَيْدن » بهولندا ، ومكتبة « برلين » بألمانيا ، والمتحف البريطاني بعاصمة إنكلترا ؛ ولكن أكثرها لا يزال للأسف مطموراً مجهولا بمكتبة الإمام بصنعاء ، أو بالمكتبات الشخصية عند بعض الأفراد اليمنيين . وحبذا لو ساعدت الظروف على البحث عن هذه المخطوطات الهامة في اليمن ، وعلى العمل على خراج بعضها ؛ فإن المؤرخ الإسلامي في حاجة شديدة لمثل هذا العمل النافع .

* * *

وإنه لجدير بنا بعد ذلك أن نتساءل : ما هي الأسباب التي جعلت أحوال اليمن ، وخاصة اليمن الزيدية ، مجهولة لدى المؤرخين إلى هذا الحد الذي بيناه ؟ خصوصاً وقد كانت اليمن في العصور الأولى موطن الحضارة العربية القديمة ، ومقراً لملوك الدول الحميرية ؛ فقد كان اليمنيون القدامى أصحاب حضارة وفن كما تدل على ذلك الآثار القديمة والحفائر في بعض البلاد اليمنية مثل « غَيْمان » و « صُرْواح » و « مَأْرِب » و « مَعِين » و « ظِفَار » و « ذِمَار » وغيرهامن بلاد اليمن . هذه الآثار التي تشهد بما وصل إليه اليمنيون القدامى من فن المعمار ، وإقامة التماثيل ، وبناء السدود ، وهندسة الري والزراعة . كذلك كان اليمنيون مهرة في صناعات كثيرة مثل صناعة النسيج ، والدباغة ، وصنع السلاح وغير ذلك ؛ كما كانت اليمن في تلك العصور هي الواسطة في التجارة بين الشرق والغرب ، تنقل التجارة عن طريق البر على ظهور الإبل قبل نقلها على السفن الشراعية عن طريق البحر . وفوق هذه الصلات التجارية كانت لليمن القديمة صلات سياسية وثقافية مع الدول الأخرى في ذلك الوقت خصوصاً مع الحبشة والفرس والروم . كل هذا وغيره معروف عن أحوال اليمن في العصور القديمة . فما هو السبب إذاً في أن أصبحت اليمن الإسلامية ، وخصوصاً اليمن الزيدية ، مجهولة إلى هذا الحد ؟

أظن أن الجواب على هذا سوف لا يكون عسيراً إذا علمنا أنه بعد أن أهملت الشئون الإصلاحية العامة فى أخريات أيام اليمن المستقلة صاحبة الحضارة المزدهرة ، أيام حكم ملوك الحميريين ، وبعد تصدع سدود المياه مثل « سد مأرب » الذى تسبب عن تصدعه ضياع المياه المخزونة اللازمة للرى والزراعة ، وإذا علمنا أنه بعد هذا رأت القبائل اليمنية الكثيرة نفسها مضطرة إلى الهجرة والتفرق ، فغادرت اليمن للبحث عن الرزق لأنفسها وعن المرعى لدوابها ، وهاجرت إلى « عُمان » وإلى جبال « السَّرَاة » فى « عسير » وإلى الحجاز والعراق والشام ؛ فانحطت بعد ذلك الحضارة والتجارة فى البلاد اليمنية ، خصوصاً بعد أن فقدت اليمن استقلالها على يد الأحباش أولا ، ثم على يد الفرس أخيراً ؛ وأصبحت اليمن غير ذات أهمية خاصة ، وانقطعت أخبارها إلا النزر اليسير منها ؛ وعاش اليمنيون الذين لم يغادروا البلاد بعد ذلك فى شبه قطيعة وعزلة ؛ وساعد على هذا وعورة المسالك فى الجبال اليمنية ، وعدم وجود الطرق المعبدة بهذه البلاد .

فلما ظهر الإسلام كانت قد تكونت للعرب فى شمال الجزيرة فكرة واضحة عن بُعد بلاد اليمن وانقطاعها ، حتى إنهم أصبحوا يضربون المثل فى بعد المنال « بصنعاء » عاصمة اليمن فقالوا : لا بد من صنعا وإن طال السفر ! ، وأصبح ذلك مثلا يُضرب عندما يريد الإنسان أن يقول : سوف لا تحول العقبات بينى وبين ما أبتغيه ، وسوف لا يمنعنى بعد الشقة من الوصول إلى الهدف ، وإن بعد ما بينى وبينه بُعد صنعاء عاصمة اليمن . وبقى هذا المعنى فى العصر الأول للإسلام ، فإنا نجد مثلا « سعد بن معاذ » الصحابى الأنصارى المشهور يظهر للرسول عليه السلام خضوعه له ، واتباعه لأوامره مهما كلفه ذلك من مشقة فيقول له : « سوف لا نقول لك كما قال قوم موسى له (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) وإنما نقول لك : سوف نتبعك ولو سرت بنا إلى بَرْك الـغِماد » وبرك الغماد هذا موضع ببلاد اليمن .

كذلك فى أيام الدولة العباسية نجد هذا المعنى باقياً أيضاً . ففى أيام الخليفة المقتدر نجد أن الوزير أبا الحسن عليا بن الفرات حينما يبحث عن المنفى البعيد ليرسل إليه سلفه الذى أصبح مغضوباً عليه — الوزير علياً بن عيسى — لا يجد أبعد من « صنعاء » عاصمة اليمن ليرسل به إليها ، فنفاه إليها فى سنة

٣١١ هـ ، ولم يرجع الوزير المنفى من منفاه إلا بعد خلع ابن الفرات فى السنة التالية سنة ٣١٢ هـ حيث أذن له أن يغادر المنفى إلى مكة .

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم من أسباب جهل الأحوال باليمن ، وعدم ذكر مشاهير المؤرخين والجغرافيين الإسلاميين إلا النزر اليسير الذى لا يغنى عن اليمن ، وخصوصاً عن اليمن الزيدية ، يمكننا أن نضيف سبباً آخر ، ذلك أن هؤلاء المؤرخين الذين عاش أغلبهم فى عصور الدولة العباسية ، ومن أتى بعدهم كانوا يعتبرون أصحاب الدولة الزيدية اليمنية من الذين خرجوا على دولة الخلافة ، فهم حتى وإن علموا شيئاً عن أحوال الدولة الزيدية — وهو أمر غير واضح — لا يعطونها الأهمية التى تستحقها ، ولا يعنون بالتأريخ لها لهذا السبب .

* * *

والدولة اليمنية الزيدية تنتسب إلى الإمام « زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب » ، لأن مؤسسها « الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين » كان يعتنق المذهب الزيدى المنسوب إلى الإمام زيد . وجدير بنا قبل أن نتحدث عن نشأة هذه الدولة أن نبين فى اختصار من هو الإمام زيد ، وما هو المذهب الزيدى الذى قامت الدولة الزيدية باليمن على أساس منه .

فالإمام « زيد بن على » كان من أعلام أهل البيت عالماً مجتهداً ذا رأى ومكانة ، طلق اللسان ، حلو الحديث ، قوى الحجة . تحدث عنه مرة ابن أخيه الإمام « جعفر الصادق » فقال : « كان والله أقرأنا لكتاب الله ، وأفقهنا فى دين الله ، وأوصلنا للرحم . والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله » . وقال الإمام « أبو حنيفة النعمان بن ثابت » صاحب المذهب الفقهى المعروف : « شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله ، فما رأيت فى زمانه أفقه ولا أعلم منه ولا أسرع جواباً ، ولا أبين قولا . لقد كان منقطع القرين » .

وكان الإمام زيد يتطلع للخلافة ، ويرى نفسه أحق بها ، ولا يتورع من ذكر ذلك فى مجالسه . ولما بلغ الخليفة الأموى « هشام بن عبد الملك » ذلك عنه حقد عليه ، وانتهز مرة دخوله عليه فحقره ، وقال له : « لقد بلغنى يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك ؛ وأنت ابن أمة » ، (وقد كانت أم زيد جارية سندية) فرد عليه زيد وقال له : « يا أمير المؤمنين ؛ لقد كان

إسحق ابن حرة و إسماعيل ابن أمة ، فاختص الله ولد إسماعيل، فجعل منهم العرب ، وجعل من العرب رسول الله » .

خرج زيد بعد هذا ، وقد اعتزم الخروج على هشام ؛ وبعد أن اتهمه هشام فى وديعة عنده « لخالد بن عبد الله القسرى » بعد القبض على خالد مقدارها ستمائة ألف درهم ، أرسل به إلى « يوسف بن عمر الثقفى » والى العراق الجديد فحقق معه يوسف وثبتت براءته لديه ؛ ثم أمره يوسف بالرحيل عن العراق . ولما تأهب زيد للرحيل تبعه أهل الكوفة ، وبايعوه ، وحرضوه على الخروج وتواعدوا معه ، وحددوا يوماً خاصاً لإعلان الخروج . وعندما علم بذلك خاصة زيد وقرابته نصحه الكثيرون منهم بالعدول ، وبينوا له غدر الكوفيين ، وعدم وفائهم . وكان من الناصحين له « داود بن على » ، و« سلمة ابن كهيل » ولكن زيداً لم ينتصح ، وخرج فى صفر سنة ١٢٢ هـ — يناير سنة ٧٤٠ م فتفرق عنه أصحابه ولم يثبت معه فى قتال جيوش يوسف الثقفى إلا القليلون منهم . وفى نفس اليوم الذى أعلن فيه زيد الثورة أصيب بسهم فى جبينه وقتل ، فاحتزت رأسه ، وبعث بها إلى هشام ، وصلب جثمانه « بكناسة الكوفة » ولم يزل كذلك حتى أمر « الوليد بن يزيد بن عبد الملك » بإنزاله وحرقه فى أواخر سنة ١٢٥ هـ عند ما ثار « يحيى بن زيد » بخراسان ، وقتل كما قتل والده زيد من قبله . وبهذا سلك زيد طريق جده الحسين ، ونال مثل خاتمته .

وقد كان زيد صاحب علم واجتهاد — كما قلنا — وكان تلميذاً « لواصل ابن عطاء » رئيس المعتزلة ، على الرغم مما كان يراه واصل من جواز أن يكون علىّ على خطأ فى حروبه مع معاوية ، وفى واقعة الجمل ، الأمر الذى جعل محمداً الباقر ينتقد على زيد أخيه ، ويلومه فى تتلمذه على واصل بن عطاء .

فمذهب زيد فى الأصول يشبه مذهب المعتزلة ، وله فى الفروع مذهب خاص قريب الشبه بمذهب « أبى حنيفة » خصوصاً فى المعاملات . فأبو حنيفة كان يتصل بالإمام زيد، وينتصر له . وقد روى « أبو الفرج الأصفهانى» فى « مقاتل الطالبيين » أن أبا حنيفة كان ينصر زيداً ويميل إليه ، وأنه بعث إليه بمال ليستعين به فى جهاد عدوه ، فقبله زيد منه . فليس من الغريب بعد هذا أن يتأثر أبو حنيفة فى فقهه بهذه الصلة .

وأما فيما يتعلق بالإمامة ، وولاية الحكم فى الأمة الإسلامية ، هذه المسألة

التى تعتبر مدار الخلاف بين السنيين والشيعيين ، فإن المذهب الزيدى فيها يعتبر أعدل المذاهب الشيعية ، وأقربها إلى مذهب جماعة المسلمين من السنيين . وأهم ما يمتاز به عن بقية مذاهب الشيعة أنه لا يبالغ فى تقديس علىّ ، وجعله فى مصاف الآلهة ، كما هو مذهب الغلاة من الشيعة .

ثم على الرغم من اتفاق الزيديين مع جمهرة الشيعة فى أحقية علىّ وأبنائه من فاطمة بالإمامة فإنهم يقولون بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ؛ ولهذا فزيد وأتباعه لا يتبرأون من أبى بكر وعمر ، ولا يلعنونهما — كما يفعل غيرهم من الشيعة — ويقولون بصحة إمامتهما . ولقد قرر الإمام زيد أن مصلحة المسلمين وجمع كلمتهم كانت تقتضى إسناد الخلافة عقب وفاة الرسول عليه السلام إلى أبى بكر ، وعدم إسنادها إلى علىّ ، وإن كان علىّ هو الأحق بها وصاحبها ، وهو الذى توفرت فيه شروطها . وكان رأيه هذا سبباً فى خروج شيعة الكوفة عليه ورفضهم له ، فسموا بذلك « الرافضة » .

ومما يمتاز به الزيديون أيضاً عن بقية الشيعة فى مذهبهم ، ومما يقربهم من السنيين أنهم لا يقولون بالتَّـقِيَّة — وهى أن يحافظ المرء على نفسه أو عرضه أو ماله مخافة عدوه ، فيظهر غير ما يبطن ؛ فهى مداراة وكتمان ، وتظاهر بما ليس هو الحقيقة — وأنهم لا يقولون بأن الأئمة معصومون كالأنبياء لا يرتكبون صغيرة ولا كبيرة ، ولا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ؛ كما لا يقولون باختفاء الأئمة بمثل ما يقول به بقية الشيعة . كذلك لا يقولون بالرجعة ، كما يعتقد الكثيرون من الشيعة الإمامية الذين يقولون برجعة الرسول عليه السلام ، وبرجعة علىّ وباقى الأئمة ، ورجعة خصومهم كأبى بكر ، وعثمان ، ومعاوية ، ويزيد ؛ يرجعون جميعاً — فى رأيهم — بعد ظهور المهدى ليعذب من اعتدى منهم على الأئمة واغتصبهم حقهم ، ثم يموتون جميعاً ، ويحيون يوم القيامة .

والزيديون يشترطون فى الإمام أن يكون عالماً مجتهداً ، ولهذا كانت أكثرية الأئمة الزيديين علماء أصحاب رأى واجتهاد . ومما يؤثر عن المغفور له الإمام يحيى فى هذا الباب أنه كان يقول : « قبح الله ملكاً يدخل عليه من هو أعلم منه » .

ومن الأمور الهامة فى المذهب الزيدى التى كان لها أثر كبير فى تاريخ الأئمة الزيدية ، وفى تعدد الأئمة منهم فى وقت واحد ، أن زيداً

كان يرى الخروج على الظالم المتغلب ، ويجعل الخروج شرطاً فى كون الإمام إماماً ، حتى أن أخاه محمداً الباقر اعترض عليه فى هذا الرأى وقال له : « على قضية مذهبك والدك ليس بإمام (يعنى عليا زين العابدين) لأنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج » .

ولقد اعتنق المذهب الزيدى الكثيرون من آل البيت ومن غيرهم ، وتعددت الفرق الزيدية بعد مقتل زيد ، وانتشر مذهبه فى بلاد كثيرة ، فى إيران التى كانت معروفة ببلاد العجم ، وفى الكوفة ببلاد العراق ، وفى الحجاز ، وفى اليمن . وكان الإمام « الهادى إلى الحق » مؤسس الدولة الزيدية باليمن ممن اعتنقوا المذهب الزيدى ؛ تلقاه بواسطة أبيه الحسين ، وعميه الحسن ومحمد ، عن جده الذى كان من كبار الأئمة الزيدية « القاسم بن إبرهيم بن إسماعيل بن إبرهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب » . فرأس الدولة الزيدية باليمن حسنى نسباً ينتسب إلى الحسن بن على ، حسينى مذهباً ، باعتبار أن زيداً صاحب المذهب من أبناء الحسين .

قامت الدولة الزيدية باليمن فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، فى الوقت الذى كانت فيه أحوال الخلافة العباسية قد اضطربت ، والسلطة المركزية فى بغداد قد ضعفت . هذا الوقت الذى كانت قد قامت فيه كثير من الدويلات الإسلامية التى استقل بها بعض الولاة الطامعين فى السلطان والحكم ، والذى ظهر فيه الكثير من الأسر الحاكمة . فى هذا الوقت لم تكن بلاد اليمن بأحسن حالا من بقية بلاد الدولة العباسية الأخرى ، بل كانت أحوال اليمن أكثر اضطراباً لبعدها عن مركز الخلافة ، وانقطاعها عن مقر الحكم ، ولكثرة المتطلعين فيها إلى الحكم والسلطان ، والمتنافسين على النفوذ أمثال « بنى زياد» بزبيد و«آل أبى يعفُر الِحوالى » فى « صنعاء ، وشِبام ، وكوكبان » ، و«آل المناضى » فى « مذيخرة ، وبلاد الجند » ، و«آل الضحاك » فى « بلاد حاشد » ، وغيرهم فى نواحى اليمن الأخرى .

ولقد كانت منطقة « صعدة » فى جهات اليمن الجبلية الشمالية حيث تسكن قبيلة خولان شديدة الاضطراب والفوضى ، ومنقطعة الصلة تقريباً بدولة الخلافة العباسية وعمالها فى اليمن ؛ كما أن سكانها من « خولان » ومن يتصل بهم لم يتفقوا فيما بينهم على اختيار زعيم منهم ليحكم فيهم ، كما فعل غيرهم فى المناطق

الأخرى. لهذا ، ولأنهم كانوا على صلة بآل البيت فى الحجاز ، ومن المتشيعين لهم ، فقد وقع اختيارهم على الهادى إلى الحق « يحيى بن الحسين » أحد أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب – كما قلنا – وقد كان يسكن جبل « الرَّس » بالقرب من مدينة الرسول عليه السلام فى الحجاز ، وعلى بعد ستة أميال فى الجهة الشمالية الشرقية منها .

اختار هؤلاء اليمنيون « الهادى إلى الحق » للقيام بهذه المهمة الشاقة لتشيعهم كما ذكرنا ، ولما كانوا يعرفون عنه من الكفاءة والعلم ، والبصر بالأمور؛ فذهب إليه وفدهم من رؤساء « خولان » يدعونه ليكون إمامهم وحاكمهم . ولبى الهادى الدعوة فسار إلى اليمن فى سنة ٢٨٠ هـ – سنة ٨٩٣ م . ذهب إلى اليمن وهو عازم على إقامة حكم شيعى مستقل بهذه البلاد ، وهو ينوى العمل على إصلاح الأحوال فيها ، وإقامة العدل بين الناس على أساس من مبادئ الدين الإسلامى ؛ كما كان ينوى القضاء على الفوضى ، وتعويد الرعية الطاعة والخضوع للنظام . ولكنه بعد أن وصل إلى هناك ، وأخذ يمارس مهمته كحاكم إسلامى محافظ على تعاليم الدين منفذ للأحكام مقيم للحدود ، صدمته الحقيقة القاسية المرة ، حيث رأى أن الشعب اليمنى كان قد تحلل من كل قيد ، وأن الزعماء كانوا أكثر الرعية تحللا ، وأنه يقف بجانب هذه الفوضى عاجزاً لا يستطيع التنفيذ ، وليس لديه من وسائل القوة ما يمكنه من الحكم حتى أنه – كما روى كتاب « الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة » – لم يستطع إقامة حد الشرب على أحد الأمراء اليمنيين الذى ثبت عليه أنه شرب الخمر ، فصمم «الهادى إلى الحق » بعد ذلك على أن يعود إلى الحجاز ، وعلى ألا يبقى بين هؤلاء الناس الذين دعوه للحكم فيهم ثم لم يمكنوه من أداء مهمته ؛ وعاد إلى الحجاز فعلا بعد وصوله إلى اليمن بزمن يسير .

وبعد مغادرته لليمن كثرت الفتن والخلافات هناك ، واشتد القحط ، وعمت المجاعة . فرأى زعماء « خولان » أنهم أخطأوا فى عدم تمكينهم « للهادى» فى الحكم حين كان بينهم ، وأنه لا يمكن أن يصلح حالتهم المتناهية فى السوء إلا رجل مثل « الهادى إلى الحق » يعود إليهم ، وهو مزود بكل ما يلزمه من المعونة ووسائل التنفيذ حتى يستطيع إنقاذهم مما وقعوا فيه . استقر هذا المعنى فى نفوسهم ، وآمنوا بهذه الفكرة فأخذوا يراسلون « الهادى » من جديد ،

ويرجونه فى العودة إليهم ؛ وهو من جانبه لا يرغب فى هذه العودة بعد ما وقع له من التجارب ؛ ولكنهم ألحوا عليه فى الرجاء وتوسلوا إليه بوالده وأعمامه ، حيث ذهب إليهم فى المدينة جماعة من رؤساء « خولان » راجين منهم المعاونة فى إقناع « الهادى » بالعودة إلى اليمن ؛ فقبل « الهادى » ذلك بعد أن تعهد له هؤلاء الرؤساء بالطاعة ، وبوضع كل وسائل القوة تحت يده حتى تتوفر له وسائل الحكم فيهم ، والعمل على إصلاح أحوالهم .

عاد « الهادى » إلى اليمن فى شهر صفر سنة ٢٨٤ هـ — مارس سنة ٨٩٧م ووصل إلى جهات « صعدة » حيث تسكن قبيلة « خولان » التى تعهد له رؤساؤها بالطاعة والخضوع ، فأسس الدولة الزيدية باليمن التى لا تزال قائمة إلى اليوم ، وجعل من مدينة « صعدة » عاصمة لمملكته الناشئة . وكان قد انتفع بتجاريبه السابقة ووقف بنفسه على ما سيلاقيه من صعوبات ، فأخذ من اللحظة التى وصل فيها يعد لكل أمر عدته . وكان قد أحضر معه فى هذه المرة الكثيرين من أهله وقرابته من آل البيت ليستعين بهم فى إدارة شئون دولته .

وفى الوقت الذى حكم فيه « الهادى إلى الحق » من يوم أن أسس دولته فى سنة ٢٨٤ هـ إلى أن توفى فى سنة ٢٩٨ هـ تولى الخلافة العباسية ثلاثة من الخلفاء : الخليفة « المعتضد بالله » الذى كان خليفة بالفعل فى سنة ٢٨٤ هـ حيث حكم من سنة ٢٧٩ إلى سنة ٢٨٩ هـ ، والخليفة « المكتفى بالله » من سنة ٢٨٩ إلى سنة ٢٩٥ هـ ، ثم الخليفة « المقتدر بالله » الذى ولى الخلافة من سنة ٢٩٥ ، ثم استمر حكمه إلى ما بعد وفاة « الهادى » ، إلى سنة ٣٢٠ هـ . ولقد تحددت العلاقة بين دولة اليمن الزيدية ، وبين دولة الخلافة العباسية من يوم أن تأسست الأولى ، حيث أسسها « الهادى » من المبدأ دولة مستقلة على أساس دينى شيعى زيدى مخالف لمذهب الخلافة العباسية السُّنى ، فاقتطع « الهادى » بذلك جزءاً كبيراً من رقعة الدولة العباسية الهزيلة فى ذلك الوقت ، واستقل ببلاد الجبال الشمالية فى اليمن ، ذلك القطر الذى كان يتبع الخلافة ولو اسمياً ؛ ثم أخذ بعد ذلك يعمل للقضاء على ما بقى للخلافة العباسية فى اليمن من نفوذ ضعيف ، كما سنبين ذلك .

كان على « الهادى » عقب وصوله إلى اليمن فى المرة الثانية أن يعنى

أولا وبالذات بالقضاء على الفتن ، وبتهدئة الأحوال ، وتيسير الأرزاق ، وتأمين الناس على حياتهم وممتلكاتهم فى منطقة « صعدة » مقر الدولة الجديدة . فعمد أولا إلى الإصلاح بين الزعماء ورؤساء القبائل ، وحَسْم مادة الفتنة فيما بين أهل خولان صعدة ؛ ثم جمع زكاة الأموال والأطعمة من أغنيائهم ووزعها على الفقراء والأيتام . وبعد أن رأى أن النفوس قد اطمأنت ، وأن الأمور قد استتبت خرج بعد أيام من « صعدة » ، وأخذ يطوف فى أنحاء منطقتها متفقداً لأحوال الرعية ، ومحرضاً الناس على الجهاد فى سبيل الله ، وعلى الاستعداد والتأهب للحروب المقبلة . فهو يرى أنه صاحب رسالة إصلاحية إسلامية ، وأن عليه أن ينشرها بين اليمنيين فى كل الجهات التى يمكن فتحها والتغلب عليها ، وهو صاحب دولة إسلامية علوية جديدة ؛ والعلويون يرون جميعاً ديانةً وسياسة أنهم أصحاب الحق فى الخلافة ، وإن اختلفوا فى التفصيلات.

وكان على « الهادى » بعد أن رست قواعد الدولة بجهة « صعدة » ، وبعد أن استقرت الأمور واستتب النظام بتلك النواحى أن يعمل على ضم الجهات الشمالية كلها إلى دولته ، حتى يحمى ظهره ، وحتى يستطيع بعد ذلك أن يتجه — وهو مطمئن — إلى جنوب اليمن ، حيث يحكم بعض أمراء اليمن مثل « آل طريف » و « آل أبى يعفر الحوالى الحميريين » باسم دولة الخلافة العباسية ، ثم لحساب أنفسهم مستقلين عن الخلافة تماماً من سنة ٢٩٠ هـ . وكان أهم الجهات الشمالية هذه جهتين ، جهة « نجران » ، وجهة « بَرَط » .

وبلاد « نجران » تقع فى حدود اليمن الشمالية ، بين اليمن وبين نجد والحجاز ؛ وهى بلاد لها شهرتها فى الجاهلية قبل ظهور الإسلام ، حيث كان يعتنق أهلها النصرانية ، ومنها أصحاب الأخدود الذين تمسكوا بعقيدتهم أشد التمسك ، وحُرِّقوا فى سبيل التمسك بالعقيدة على يد « يوسف ذى نواس » أحد ملوك اليمن الذى كان قد اعتنق اليهودية ، وكان يريد أن يحمل أهل « نجران » على اتباعه فى عقيدته ؛ وقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم . ثم هى شهيرة فى مبدأ الإسلام ، حيث وفدت وفودها على الرسول عليه السلام وهو بالمدينة فى السنة العاشرة من الهجرة ، وحيث أجلى عمر بن الخطاب النصارى منهم أثناء خلافته إلى الشام وإلى العراق ، ثم هى شهيرة حتى فى التاريخ المعاصر ، حيث كانت هذه البلاد موضع خلاف بين جلالة المغفور له « الإمام يحيى » ،

وجلالة « الملك عبد العزيز آل سعود » حتى سنة ١٩٣٤ م .

وكان أهل « نجران » في عهد « الهادى » ينقسمون إلى فريقين مختلفين متنازعين ؛ الفريق الأول يتكون من سكان جهة « وادعة » على حدود منطقة « صعدة » الشمالية مباشرة ، ومن قبيلة « شاكر » وقبيلة « يام » الهَمْدانيتين ؛ والفريق الثانى يتكون من « بنى الحارث » الذين ينتسبون إلى « أزد عُمان » ، وكان الفريق الأول يستبشر بقدوم « الهادى » خيراً ، وينتظر حل الخلاف الذى بينهم وبين خصومهم على يديه ، فهو إما أن يعينهم وينصرهم على خصومهم ، أو يعقد بينهم وبين هؤلاء صلحاً يضع حداً لما بين الفريقين من شقاق . فلما جمع الهادى جموعه من « خولان » وغيرهم من القبائل الموالية له ، واتجه بهذه الجموع إلى « نجران » فى جمادى الآخرة — أى بعد وصوله إلى « صعدة » بنحو ثلاثة أشهر — لقيه الفريق الأول مستبشرين بقدومه ، وبايعوه فوراً ، وانضموا إليه ، فسارت جموعهم مع جموع « الهادى » التى قدم إليهم بها ، واتجه الجميع إلى مواطن الفريق الثانى من النجرانيين « بنى الحارث » الأزديين . ولم يسع هؤلاء إلا الخضوع « للهادى » والتسليم له ، لما رأوه من قوته ، خصوصاً بعد أن انضم خصومهم إليه ؛ وبذلك أصبحت جميع بلاد « نجران » والمناطق التى تصلها بجهات « صعدة » تابعة « للهادى » . غير أن « الهادى » لم يرد أن يكتفى بهذا التسليم والخضوع من الفريقين ، وإنما أراد أن يزيل ما بينهما من شقاق ، وأن يقضى على ما فى نفوسهم من حزازات نتيجة للخلافات الطويلة السابقة ، فعقد الصلح بين الفريقين ، وأخذ عليهم المواثيق الأكيدة بالاتفاق ، وترك الشقاق ، وبايعه الجميع على ذلك . ولم يشأ الهادى أن يغادر « نجران » إلا بعد أن مكث مدة فى قرية « هَجَر » النجرانية يرقب الأحوال ، حتى اطمأن إلى استقرار الحال بهذه البلاد وهدوئها وإلى سكون الفتنة بين أهلها ، وتقرر قواعد الصلح . وبعد ذلك عاد إلى « صعدة » عاصمة دولته ومركز سلطانه ؛ ثم وضع عهداً لأهل الذمة من النصارى الذين كانوا يسكنون جهات « صعدة » « ونجران » ، واتفق معهم على أن يأخذ منهم تُسع غلة الأراضى التى اشتروها من المسلمين ، وأن يُعفيهم فلا يأخذ منهم شيئاً من غلة الأراضى التى كانت لهم من زمن الجاهلية ؛ ثم قرر عليهم الجزية .

وبعد مضى سنة من تأسيس « الهادى » لدولته ، أى فى صفر سنة ٢٨٥ هـ رأى أن يتم الاستيلاء على الجهات اليمنية الشمالية ، فسار إلى جبل « بـَرَط » وهو من المناطق اليمنية المعروفة بخصوبة تربتها ، وجودة هوائها ، ويمتاز بسعة قمته ، ووعورة مسالكه ، وبحصونه المنيعة ، كما يمتاز سكانه بكثير من الصفات المحمودة ؛ ويعده « الهـَمْدانى » فى كتابه « صفة جزيرة العرب » من عجائب اليمن الشهيرة . ولم يشأ سكان جبل « بـَرَط » أن يسلموا « للهادى » بسهولة ، فسدوا فى طريقه المسالك حتى لا يصل إليهم ، وحالوا بينه وبين الماء ؛ ولم يشأ الهادى أن يبدأهم بالقتال ، وإنما أخذ يعظهم ويدعوهم إلى اتباعه ؛ ولكنهم لم يستجيبوا له بل بدأوه بالعدوان ، ورموه بالنبال حتى أصيب « الهادى » نفسه بسهم ؛ فحمل عليهم أصحابه وانتصروا عليهم بعد أن قتلوا منهم جماعة وأسروا آخرين ، وأخذوا منهم الأسلاب الكثيرة ؛ ومع هذا فقد أراد « الهادى » أن يعاملهم بالحسنى تأليفاً لقلوبهم ، فحال بين أصحابه وبين قتل الأسرى ، وقد أرادوا قتلهم ؛ كما حال بينهم وبين تتبع الفارين . ولما رأى هؤلاء السكان تلك المعاملة الحسنة من« الهادى »، ورأوا أنهم لا قبل لهم به طلبوا منه الأمان ، فأمنهم وبايعوه هم بعد ذلك ؛ ورأى الهادى من ناحيته أن يزيد فى الإحسان إليهم ، فأطلق سراح أسراهم ، ورد إليهم أسلابهم ،. وكان ذلك كفيلا بأن يجعلهم يُسْلمون إليه القياد ، ويُلْقون إليه الزمام بإخلاص ؛ فاطمأن « الهادى » إلى هذه النتيجة ، ولم يمكث بينهم بعد ذلك إلا ثلاثة أيام عاد بعدها إلى « صعدة » بعد أن نصَّب عليهم « عبد العزيز بن مروان البحراوى » واليامن قبله ليدير شئونهم ، ويقبض زكاة العُشر منهم ، كما كان يفعل فى كل الجهات التى تدخل فى حوزته .

وبعد أن استولى « الهادى » على كل جهات اليمن الشمالية ، واطمأن إلى ذلك اتجه إلى الجنوب ، وأراد أولا أن يضم الجهات القريبة من « صعدة » فى جهة الجنوب منها حتى يؤمّن عاصمته من الجهات الجنوبية بعد أن أمّنها من جهة الشمال ، فسار إلى بلاد « خَيـْوان » و « الحَضَن » و « أثافث » إلى هذه المنطقة التى تسكنها قبائل « َهمْدان » حيث تمتد مساكنهم فيما بين «صعدة» وصنعاء . وتلقّاه كل أهل هذه الجهات بالترحاب ، وقدموا إليه الطاعة إلا

رجلا من زعمائهم هو « الدّعام بن إبرهيم الأرحبى » رئيس قبيلة « بَكيل » من هَمْدان ، فقد طلب إلى «الهادى» أن يجعله واليا على المنطقة التى هو فيها ، فلم يقبل « الهادى » ، ووقعت بينهما حروب انتصر فيها « الهادى » على « الدّعام » وعقد معه صلحاً ، ثم أصبح هذا هو وأبناؤه من رجال « الهادى» فيما بعد .

وبذلك تمت المرحلة الأولى فى تاريخ تأسيس الهادى للدولة الزيدية اليمنية ، حيث وطد دعائمها فى « صعدة » وما يحيط بها شمالا وجنوباً فى ظرف سنتين من أوائل سنة ٢٨٤ إلى نهاية سنة ٢٨٥ ه . ولقد أصبحت هذه المنطقة منذ ذلك الحين إلى اليوم حصن الزيدية الحصين باليمن .

ثم أخذت الفرص بعد ذلك تتهيأ « للهادى » ليمد نفوذه إلى الجهات الجبلية نحو «صنعاء »، و«شبام»، و« كوكبان » ، و « ذِمار » وغيرها . فقد كتب إليه فى المحرم من سنة ٢٨٦ ه صاحب « صنعاء » الأمير « أبو العتاهية عبد الله بن بشر بن طريف » بالولاء والطاعة ؛ ولكنه اشترط شروطاً طلب فيها أن يوليه « الهادى » على « صنعاء »، فلم يشأ « الهادى » أن يتسرع فى إجابته إلى مطلبه حتى يتأكد من صدقه فى ولائه ومن سلامة قصده ، وهو ما أثبتته الأيام والحوادث بأقوى الأدلة . ولقد تنازل « أبو العتاهية » عن شروطه بعد أن رأى استبداد الأعاجم من أتباع « على بن خُفْتُم » والى الخلافة العباسية الموفد من بغداد بسكان البلاد التى تحت أيديهم فى جوار «صنعاء»، وبعد أن أيقن أنه لا مخلص لهم مما هم فيه من سوء الحال إلا أن يقدم «الهادى» الذى اشتهر بعدله فيحكمهم ليضبط الأمور ، ويعدل فى الرعية .

وفى أوائل سنة ٢٨٨ ه جمع « الهادى » جموعه واتجه إلى « صنعاء » فلما قرب منها أعمل « أبو العتاهية » الحيلة ليسهل دخول الإمام إلى «صنعاء»، حيث كان يخشى معارضة الأمراء اليمنيين من « آل يعفر » وقرابته « آل طريف» ومعارضة غيرهم من رجال «على بن خُفْتُم» . ونجحت حيلة « أبى العتاهية»، ودخل « الهادى » إلى « صنعاء » فى ٢٣ من المحرم سنة ٢٨٨ ه فضبط الأمور ، ووزع ولاته فى منطقة « صنعاء » ، ثم استولى على المخاليف المجاورة ، ودخل « شِبام » و « ذِمار » وأقام عليها حكاماً من قبله ؛ ولكن « الهادى » لم يتح له الهدوء والاستقرار فى « صعناء » والجهات المجاورة لها ، لأن حزب المعارضة القوى الذى كان يجمع الأمراء

اليمنيين من « آل يعفر الحوالى » ، و« آل طريف» مع « خُفشُم » والى الخلافة ورجاله انتهز فرصة توزيع « الهادى » لرجاله فى البلاد التى استولى عليها ، وخروجه لبعض النواحى لتفقد الأحوال ، فهاجم « صنعاء » ، ودارت بين الفريقين حروب طاحنة انتهت بطرد عامل « الهادى » من « صنعاء » ، وبإعادة الخطبة للخليفة العباسى من جديد .

غير أن « الهادى » لم يشأ إلا أن يبذل كل ما يستطيع ليدخل « صنعاء » من جديد ، فهى قلب اليمن ، وعاصمته الكبرى ، ودخلها فعلا بعد حروب وتضحيات كبيرة فى ٢٧ من رجب من نفس السنة سنة ٢٨٨ هـ ، وبقيت الأحوال مضطربة فى « صنعاء » ، وبقى المعارضون فى حروب معه ضحى « الهادى » فيها بالكثيرين من رجاله الأقوياء المخلصين أمثال الأمير « أبى العتاهية » الذى خرصريعاً فى ميدان القتال فى ٧ شوال سنة ٢٨٨ هـ وهو يحارب فى صفوف « الهادى » أمام أسوار « صنعاء » ضد « آل يعفر » وضد قرابته من «آل طريف» . وأخيراً كانت الموقعة الكبرى بين « الهادى » وبينهم فى صفر سنة ٢٨٩ هـ وهى موقعة « ظَبْوَة » التى تقع فى الجنوب الشرقى من « صنعاء » . ففى هذه الموقعة تحدد موقف الفريقين ، وفقد الهادى أكثر رجاله ، وفيهم بعض قرابته ، وفرقته الخاصة من الطبريين المخلصين الشجعان من أهل « طبرستان » الذين فنوا عن آخرهم وهم يدافعون عن « الهادى » بعد أن جرح فى المعركة وغشى عليه ، وبعد أن حاول خصومه الإجهاز عليه .

وعاد « الهادى » بعد المعركة مثخناً بجراحه إلى « صنعاء » ، وبقى مدة بها جريحاً مريضاً تحت العلاج حتى من الله عليه بالشفاء ؛ فرأى أنه لا يستطيع البقاء فيها ، خصوصاً وقد حاصره الأعداء ومنعوا عنه الأقوات ، فعاد هو ومن بقى من رجاله إلى « صعدة » فوصلها فى جمادى الآخرة سنة ٢٨٩ هـ .

وبذلك رأى الهادى أنه سوف لا يستطيع فى مثل هذه الظروف الاستيلاء على « صنعاء » وأنه من الحكمة أن يقنع بالبلاد التى والاه أهلها ، واطمأنوا إلى حكمه وإصلاحه فى « صعدة » وما يحيط بها ، والجهات الشمالية من اليمن ؛ ولم يحاول « الهادى » من ناحيته دخول « صنعاء » مرة أخرى إلا بعد أن استدعاه خصومه السابقون إلى ذلك فى سنة ٢٩٤ هـ الذين استنجدوا به عقب أن غلبهم على أمرهم ، وطردهم من عاصمتهم « على بن الفضل القرمطى

الإسماعيلى » الذى كان من دعاة العبيديين ، والذى جاوز الحدود فى الظلم والتقتيل ، وفى الإباحية التى كان يعيش فيها ، فاستجاب « الهادى » لرجاء الخصوم السابقين فى محنتهم ، وسار إلى « صنعاء » ودخلها فعلا ، ولكنه اضطر إلى الخروج منها ثانية ، وإلى العودة إلى « صعدة » والاستقرار بها حتى وافته منيته فى يوم الأحد ٢٠ من ذى الحجة سنة ٢٩٨ هـ — ١٩ أغسطس سنة ٩١١ م فدفن بها ، ولا يزال قبره معروفاً هناك إلى اليوم .

* * *

مات « الهادى إلى الحق » بعد أن نشر المذهب الزيدى فى جبال اليمن على طريقته الخاصة التى تعرف « بالمذهب الزيدى الهادوى » . والزيديون الهادويون أكثر فرق الزيدية محافظة على أصول « زيد بن على » المعتدلة ، وأقربهم إليه فى بعدهم عن التطرف ، وقربهم من مذهب السنيين . ولقد عرف « الهادى » رحمه الله بالشجاعة والورع والفقه ، ولا يزال فقهاء الزيدية باليمن يعتمدون على مؤلفاته المخطوطة إلى اليوم .

مات بعد أن نجح فى تأسيس الدولة الزيدية اليمنية ، وبعد أن أرسى قواعدها ، ووطد دعائمها ؛ ويرجع نجاح « الهادى » فى ذلك إلى عدة عوامل منها : —

أولا : إخلاص رجال قبيلة « خولان » الشجعان بجهات « صعدة » ، ومعونتهم الدائمة « للهادى » التى منحوها له عن رغبة وصدق ، بعد أن دعوه لبلادهم ليحكم فيهم ، وبعد أن رأوا أن الله قد منحهم الاطمئنان والاستقرار على يديه .

ثانياً : ما اتصف به « الهادى » من العدالة وحسن السيرة ، والحكمة فى سياسته ، وفى تصريف أمور الرعية ، فقد رأيناه أولا شديد الحرص على أن يُعوِّد الرعية على الطاعة والنظام من اللحظة الأولى التى وضع قدمه فيها ببلاد اليمن . رأيناه كيف غادر بلاد اليمن بعد أن حضر إليها فى المرة الأولى سنة ٢٨٠ هـ وعاد إلى الحجاز بعد أن رأى من بعض زعماء البلاد ورؤوسهم عدم الخضوع لأوامره ، وعدم تمكينه من إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام ؛ ولم يعد إلى اليمن فى المرة الثانية إلا بعد أن استوثق لنفسه من ذلك ، وبعد أن أعطاه رؤساء « خولان » العهد بالطاعة ، والخضوع للنظام ، وبمعاونته فى هذا السبيل .

ثم هو كان عطوفاً رحيما فى مواطن العطف والرحمة ، شديداً ذا بأس فى مواطن الشدة ؛ فنراه مثلا فى حربه لأهل جبل « بَـرَط » الذين سبق الحديث عنهم ، يطلق سراح أسراهم ويرد إليهم أسلابهم بعد النصر عليهم ، وبذلك نجح فى تأليف قلوبهم ؛ كما كان كثيراً ما يوزع زكاة الأموال التى يجمعها من قرية من القرى على فقرائها دفعاً لما يراهم فيه من حاجة وبؤس ؛ كذلك كنا نراه يخفف الضرائب عن دافعيها فى البلاد التى يفتحها ويثبت لديه فداحة الضرائب المفروضة على أهلها ، كما فعل مع أهل « رَيْدَة » الواقعة شمال « صنعاء » مثلا ، وكثيراً ما كان يرد المظالم لأهلها فى البلاد التى يفتحها .

ومن ناحية أخرى فقد كان الهادى يأخذ المخالفين بما يناسبهم من الشدة والعنف ، كما فعل مع صاحب قرية « شَوْكان » الذى خرج على « الهادى » وأراد قطع الطريق ، فقد أمر الهادى بقطع نخل هذه القرية وعنبها عقوبة لصاحبها ، وكما فعل مع جماعة ثاروا عليه بالقرب من « صعدة » ، ثم فروا أمامه وتحصنوا بمنازلهم فى الجبال ، حيث أمر بهدم منازلهم ، وقطع أعنابهم إلا المستضعفين منهم ؛ وأحياناً كان يأخذ الرهائن من القبائل التى تنتقض عليه ولا يأمن لغدرها ، فيقبض على بعض رؤسائها ضماناً ضد ثورتهم ، كما فعل مع « وائلة » من قبائل « همدان » التى كانت تسكن شرق « صعدة » وقد كان المغفور له « الإمام يحيي » يتبع هذه الطريقة .

كذلك كان « الهادى » يعنى عناية خاصة بمحاربة الرذيلة فى شعبه ، وبالعمل على تحلى أفراد الرعية بأخلاق الإسلام الفاضلة ، وتركهم لبعض العوائد التى ورثوها عن الجاهلية الأولى . ومما يلفت النظر فى هذا الباب ما رواه صاحب كتاب « أنباء الزمن فى أخبار اليمن » عن أهل « العُصَيْمات » وهو مكان فى جنوب « صنعاء » . فقد روى « أن أهل العُصَيْمات هؤلاء كان من عوائدهم أنه إذا نزل ضيف على أحدهم أكرمه بما يمكنه من القرى ، ثم يأتيه ببعض محارمه — وقد تزينت بأنواع الزينة — فتقعد عند الضيف يومه ، فيتمتع بالنظر إليها ومحادثتها ومداعبتها ، ويعدون ذلك من كمال الضيافة » فحين سمع «الهادى» ذلك عنهم قال : « إن جهاد هؤلاء أهم من جهاد غيرهم » ، ثم بادر بطلبهم ، فوصل إليه جماعة من مشايخهم ، فأنكر عليهم ما سمعه عنهم ، فاعتذروا وتعهدوا له بالإقلاع عن هذه العادات ، وبالتوبة ، وبايعوه على ذلك .

* * *

وبعد موت « الهادى » ورثه السادة الزيديون فى حكم اليمن الزيدية ، فقام بالحكم من بعده ابنه « أبو القاسم محمد المرتضى » ثم ابنه الثانى « الإمام أحمد الناصر لدين الله » الذى يتسمى باسمه إمام اليمن الحالى ؛ وبعد الناصر قام أبناؤه من بعده ، ثم غيرهم من السادة الحسنيين الذين ينتسبون إلى « الهادى إلى الحق » مؤسس الدولة ، أو إلى غيره من أبناء « الحسن بن على بن أبى طالب » « كالإمام المنصور بالله القاسم بن على العيانى » الذى ينتسب إلى محمد عم « الهادى » ، والذى حكم « صعدة » من سنة ٣٨٩ هـ إلى سنة ٣٩٣ هـ . وأحياناً كان الإمام لليمن الزيدية حسينياً ينتسب إلى الحسين بن على بن أبى طالب مثل « الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة » الذى حكم اليمن الزيدية من سنة ٧٣٠ إلى سنة ٧٤٧ هـ فى بعض الروايات ، وقد كان من كبار العلماء الذين ألفوا الكتب القيمة فى الفقه ، وفى الأصول ، وفى علوم البلاغة والأدب ؛ ومن كتبه المعروفة المطبوعة فى مصر كتاب « الطراز فى علوم البلاغة والإعجاز » ؛ ولكن أكثر الأئمة اليمنيين كانوا من الحسنيين ومن نسل « الهادى إلى الحق » مؤسس الدولة ، وجلالة الإمام الحالى وآباؤه حسنيون أيضاً ، وينتسبون إلى « الإمام الهادى » .

وفى هذه الفترة الطويلة — من وفاة « الهادى » إلى الآن — تبدلت حالة اليمن الزيدية من قوة إلى ضعف ومن ضعف إلى قوة إلى أن تولى المغفور له الإمام المتوكل على الله « يحيى بن محمد حميد الدين » فى سنة ١٣٢٢ هـ — سنة ١٩٠٤ م .

وفى هذه الأثناء أيضاً عاصر الدولة الزيدية باليمن كثير من الدول التى قامت باليمن ، وعاشت مدة ثم أصبحت فى ذمة التاريخ ، وكان لكل منها علاقات بدولة السادة الزيديين ، كما كان للكثير منها حروب معها . وهذه الدول هى : دولة « بنى زياد » فى « زبيد » التى وصل « الهادى » إلى اليمن وهى قائمة ثم انتهى عهدها فى سنة ٣٩١ هـ ؛ ودولة « بنى نجاح » التى قامت على أثر دولة « بنى زياد » فى « زبيد » وانتهت سنة ٥٥٥ هـ ؛ ودولة « بنى يعفر الحوالى الحميرى » فى « شبام » التى انتهت سنة ٣٩٣ هـ ، وهؤلاء كانت لهم حروب مع « الهادى » فى « صنعاء » كما قدمنا ؛ ودولة « على بن

محمد الصُّلَيْحي الهَمْداني » وأبنائه ، التى قامت « بصنعاء » من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٣٢ هـ ، وكانت تدعو للعبيديين ؛ ودولة « بنى زُرَيْع » الهمدانيين أيضاً التى قامت « بعدن » من سنة ٤٦٧ إلى سنة ٥٦٩ هـ ؛ « والدولة الأيوبية» باليمن من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٦٢٦ هـ ، وكانت عاصمتها مدينة « زبيد » ؛ ودولة « بنى الرسول الغسانيين » « بتَعِز » من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨هـ ؛ ودولة « بنى طاهر القرشيين » فى « عدن » و« صنعاء » من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٣٣ هـ ؛ ثم امتد نفوذ « دولة المماليك » بمصر إلى اليمن ، وأعقب ذلك نفوذ « الأتراك العثمانيين » حتى قضى عليه نهائياً فى سنة ١٣٣٧ هـ — سنة ١٩١٨ م بعد الحرب الكبرى الأولى فى عهد الإمام « يحيى بن محمد حميد الدين » .

وطبيعى أن المقام يحتم علينا أن نكتفى بهذه الإشارة العابرة لتلك الفترة الطويلة المليئة بالأحداث ، والتى تمتد من وفاة الهادى فى سنة ٢٩٨ هـ — سنة ٩١١ م إلى قيام « الإمام يحيى » سنة ١٣٢٢ هـ — سنة ١٩٠٤ م . وهو ما يزيد على الألف سنة بالحساب الهجرى .

أما اليمن الزيدية فى عهد المغفور له « الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين » سميّ جده « الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين » مؤسس الدولة ، فإنها قد ابتدأت مرحلة جديدة هامة من تاريخها تبدأ بمبايعة « الإمام يحيى » بالإمامة عقب وفاة والده « الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين » فى ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ — يونيه سنة ١٩٠٤ م وتنتهى باغتياله رحمه الله فى ربيع الثانى سنة ١٣٦٧ هـ — فبراير سنة ١٩٤٨ م .

والحديث عن دولة « الإمام يحيى » يشمل ناحيتين :

ا — ناحية وضع الدولة السياسى .

ب — ناحية إصلاح حالة الشعب اليمنى من النواحى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

أما فى الناحية الأولى ، فقد جاهد الإمام فى سبيل الحصول على استقلال اليمن ، وحارب دولة الخلافة العثمانية صاحبة النفوذ فى « صنعاء » و«تهامة» من بلاد اليمن فى ذلك الوقت ، حاربها من أول يوم تولى فيه الحكم ، واستطاع أن يحصل لليمن على استقلالها عقب الحرب الكبرى الأولى فى سنة

١٣٣٧ هـ — سنة ١٩١٨ م ، وتأكد هذا الاستقلال وصودق عليه واعترف به دوليا فى سنة ١٣٤١ هـ — سنة ١٩٢٣ م فى الدورة الثانية لمؤتمر الصلح الذى عقد « بلوزان » لتسوية المسائل التى كانت لم تسوَّ بعد بين الترك والحلفاء .

ولقد حافظ « الإمام يحيى » على هذا الاستقلال طول حياته ، وكانت له علاقات دولية ، واتصالات سياسية ؛ كما ساهم فى حركة الوحدة العربية الأخيرة .

وأما فى الناحية الثانية فإن اليمن لا يزال بحاجة ملحة إلى الكثير من أعمال الإصلاح ، وهو ما نرجو أن يحققه الله على يد جلالة الإمام الحالى « الإمام أحمد الناصر لدين الله » وأن يهيىء له من الأسباب ما يصل به إلى الهدف الذى ينشده كل محب لليمن .

وأخيراً فإننا لا نريد أن نتحدث الآن بأكثر من هذه الإشارة عن عهد « الإمام يحيى بن محمد حميد الدين » ، فالحديث عنه يطول ، ويحتاج إلى مقال آخر ، نرجو أن تهيىء لنا الظروف فى المستقبل فرصة لإعداده .

محمد عبد الله ماضى